إِرْثُ الأديانِ الرُّوحِيُّ والعَوْلَمةُ

هيلدي كيبيوم(*)

صاحب الفضيلةِ الإمامِ الأكبرِ شيخِ الأزهرِ الشريف، عزيزي البروفيسور «أندريا ريكاردي»، كلَّ الهيئاتِ، أصدقائي وصديقاتي الأعزَّاءَ، ورؤَساءَ الوُفودِ منَ السَّيداتِ.

عالَمُنا اليومَ مُمَيَّزٌ بالفعلِ بسببِ التَّغييرِ الَّذي نَجَمَ عن العَولمةِ، حيثُ نَجِدُ أنفسَنا أمامَ تَحَدٍّ قَويٍّ: ألَا وهو تَحدي التَّعايُشِ معًا -كما أشارَ «أندريا ريكاردي» بالفعلِ، في كتابِه «التَّعايُش» الذي نشره عام: ٢٠٠٧م.

فمعَ سُقوطِ الحُدودِ والهِجرةِ يُصبحُ العالَمُ دائمًا أقلَّ تَجانُسًا ممَّا سبقَ، وتُصبحُ دائمًا مُدنُنا وبُلدانُنا بمَثابةِ نوافذَ تُطلُّ على العالَمِ باختلافاتِه الدِّينيَّةِ، واختلافاتِه في التَّقاليدِ وفي الثَّقافاتِ، لكنَّ هذه الاختلافاتِ مَدعوَّةٌ للتَّعايشِ معًا.

لكنِ التَّعايُشُ لن يَمضيَ من تِلقاءِ نَفسِه، بل إنَّه يَتطلَّبُ اختياراتٍ حاسمةً، وبه حاجةٌ إلى مصادرَ جديدةٍ من شأنِها أن تُجَهِّزَ هذا العالَمَ في القَرنِ الواحدِ والعِشرينَ؛ وهذا الأَمرُ -كَما يَبدو لي- هو هدفُ اجتماعِنا هذا، في هذه المدينةِ الجميلةِ مدينةِ «جورجو لابيرا».

هذا الرَّجلُ الذي من شأنِه أن يُقَدِّمَ لنا أدواتٍ وتحليلاتٍ ورؤًى؛ كي لا نَبقى مُنغلقينَ وأَسرى لرُؤيةٍ تَشاؤميَّةٍ واحدةٍ، يُسيطِرُ عليها الخوفُ تَرى أنَّ العَيشَ المشترَك لن يكونَ مُمكنًا.

لكنِ التَّأكيدُ على استحالَةِ التَّعايُشِ المشترَك يَبدو كقِراءةٍ واقعيَّةٍ لظواهرَ بعَينِها، منها ظاهرةُ العُنفِ والتَّعارُض، لكن في الحقيقةِ لا يوجَدُ إنسانٌ يكونُ مُنعزلًا وكأنَّه جَزيرةٍ في نفسِه، لا يُمكِنُ أن نَرجعَ بحَنينٍ إلى المُجتمعِ البَسيطِ، الذي تَحقَّقَ ذاتَ مَرَّةٍ، لكن من المُناسبِ -على الأَقلِّ- أن نَحتضِنَ بشَكلٍ رَسميٍّ، وعلى مُستوًى عالٍ، التَّعدديَّةَ السَّائغةَ، التي تُخفي المُشكلاتِ؛ لأنَّنا يَجبُ أن نكونَ مُخلصينَ: «التَّعايشُ المشترَك ليسَ أمرًا سهلًا».

قبلَ كلِّ شَيءٍ، العَولَمةُ الاقتصاديَّةُ لم تأتِ بالسَّلامِ، ولا بالوَحدةِ في العالَمِ، ولا بالأمنِ، ولا بالعَيشِ الرَّغدِ للجَميعِ؛ لكنَّنا لا نَزالُ نَأمُلُ كثيرًا في تَحقيقِ هذه الأَهدافِ.

حتَّى لو كانتِ العَولَمةُ قد أَسقطَت حُدودًا كثيرةً؛ فإنَّ هذا العالَمَ يَبدو بوُضوحٍ بدونِ حُدودٍ -إلَّا أنَّه يُشَيِّدُ أسوارًا جديدةً يَقبَعُ خلفَها الفُقراءُ المَنسيُّونَ دائمًا.

الماديَّةُ العالميَّةُ لا تُعَلِّمُ أندادَنا كَيفيَّةَ العَيشِ معًا: اليومَ نَرى في أوروبا أنَّها قد أقامَت وَحدتَها، بصِفَةٍ خاصَّةٍ على أساسِ الدِّعامةِ الاقتصاديَّةِ، وبعدَ ذلكَ على

أساسِ الدِّعامةِ النَّقديَّةِ؛ مِثلُ هذه المُعالَجةِ الماديَّةِ تُهَدِّدُ فعلًا، بأن تَتسبَّبَ في انشقاقِ الاتِّحادِ الأوروبيِّ الحاليِّ: ففي أوروبا وفي وَقتِ الأزَماتِ، يَبدو الانقسامُ دائمًا عظيمًا فيما بينَ الدُّوَلِ الأعضاءِ الفاعلةِ، وتلكَ التي هي أقلُّ فاعليَّةً؛ فالأحكامُ المُسَبَّقَةُ القديمةُ ما بينَ أوروبا الشَّماليَّةِ وأوروبا الجَنوبيَّةِ، تُطِلُّ برأسِها من بعيدٍ: فهُناكَ أسوارٌ جَديدةٌ، وأشكالٌ أخرى، من سياسةِ التَّمييزِ العُنصريِّ تُبنى ما بينَ الأغنياءِ والفُقراءِ.

فالهُوَّةُ ما بينَ أولئكَ الَّذينَ يَمتلِكونَ، وأولئكَ الَّذينَ لا يَمتلِكونَ، وعَدمُ المُساواةِ الَّتي تَنمو ما بينَ الشَّمالِ والجَنوبِ؛ كما هو الحالُ أيضًا في داخلِ مدنِنا، هي -بلا شَكٍّ- أسبابٌ أساسيَّةٌ للخَوفِ وانعدامِ الأَمنِ.

عمليَّةُ توحيدِ أوروبا أي العَيشِ معًا ما بينَ أُمَمٍ أوروبيَّةٍ مُختلِفةٍ في سلامٍ، والتَّضامُنُ والاحترامُ المُتبادَلان، كانَ مَشروعًا روحيًّا بعُمقٍ؛ ولأجلِ الذَّهابِ إلى ما وراءَ روحِ التَّنافُسِ القَوميِّ، والازدِراءِ والحُكمِ المُسَبَّقِ الَّذي أتى بالحَربينِ الأوروبيتينِ الشَّرِستينِ، وإلى مُحاولةِ استئصالِ كلِّ الشَّعبِ اليَهوديِّ في أوروبا.

لا يَكونُ كافيًا أن نَصِفَ الأَزمةَ الأوروبيَّةَ الحاليةَ، بصِفتِها أزمةً ماليَّةً أو اقتصاديَّةً؛ بل هي أزمةٌ روحيَّةٌ، وعلى أوروبا أن تُجَدِّدَ خيارَها الروحيَّ، الَّذي ألهمَها جُلَّ عمليَّةِ التَّوحيدِ.

بدونِ البُعدِ الروحيِّ في الحياةِ، لا يُمكِنُ للنَّاسِ أن تَتعلَّمَ أن تَعيشَ معًا؛ في العالَمِ الماديِّ، عالَمِ الليبراليَّةِ الجَديدةِ، يَتملَّكُ كلُّ شخصٍ لأجلِ نفسِه، وفي النِّهايةِ يُصبحُ الجميعُ مُتنافسينَ.

في روايةِ «أطلس شرجد» الكاتبة الأمريكية المؤثرة، نَجدُ «أيين راند» يوصي بعالَمٍ من اللَّلازمِ فيه أن يكونَ هناك ثمنٌ، يُدفَعُ مقابلَ أيِّ شيءٍ؛ حيثُ تكونُ الدَّولةُ بالكاملِ ملكيَّةً خاصَّةً، وحيثُ يكونُ العملُ بلا أجرٍ شيئًا خاطئًا بالأساسِ.

للأسفِ الشَّديدِ هي نَظريَّةٌ وَضعَتِ العالَمَ في سقوطِه الحالي؛ فلو أنَّ تُراثَنا الدِّينيَّ بأشكالِه المختلِفةِ نَشَرَ رِسالةَ سَلامٍ فإنَّ هذا يَعني أيضًا: أنَّ هذا التُّراثَ يُشَجِّعُ علي تَضييقِ الهُوَّةِ ما بينَ الأغنياءِ والفُقراءِ، والمَرضى والأصحَّاءِ، والمُسنِّينَ والشَّبابِ -يَعني: أنَّه يَدعو إلى اعتبارِ أنَّ الحياةَ خِدمةٌ للآخرينَ، وخِدمةٌ للسَّلامِ.

الأزمةُ الاقتصاديَّةُ في الأعوامِ السَّابقةِ زادَت من حِدَّةِ قَسوةِ الرَّأيِ العامِّ تُجاهَ الفُقراءِ؛ وهو الأمرُ الَّذي زادَ من الحاجةِ إلى صَوتٍ بديلٍ لإيقافِ ما يُسمَّى بـ «كلٌّ يَعملُ لأجلِ نَفسِه».

مرَّةً أخرى: بدونِ الرُّوحانيَّةِ الَّتي تَنقُلُ القِيَمَ الأخلاقيَّةَ والعالميَّةَ؛ فإنَّ النَّاسَ والمُجتمعاتِ لن تَتعلَّمَ أن تعيشَ معًا.

نَرى كثيرًا من معاصرِينا في أوروبا ربَّما يَكونونَ مُتعلِّمينَ، وأصحابَ قُدراتٍ، أحرارًا عُقلاء، لكنَّهم فارغونَ روحيًّا؛ من المُمكِنِ أن أقولَ: إنَّهم ليسَ لدَيهم أيَّةُ معلوماتٍ على الإطلاقِ عنِ التَّعايُشِ مع الآخَرِ؛ فالفراغُ -خاصَّةً إذا ما كانَ مصحوبًا بالجهلِ- يُعتبَرُ خَطرًا على وَجهِ الأرضِ: مِن شأنِه أن يَبذُرَ فيها مشاعرَ العَداءِ والتَّصادُمِ.

فإن مُظاهراتُ الشَّبابِ في ضواحي «لندن» أو «باريس» أظهرَت في أُسلوبٍ دِراميٍّ، غيابَ التَّعايُشِ مع الآخَرِ، وغَضَبَ الأجيالِ الشَّابَّةِ، وبصِفةٍ خاصَّةٍ أبناءُ المُهاجرينَ الَّذينَ يَكبَرونَ بدونِ المُشارَكةِ في الحياةِ الرَّغيدةِ في المُجتمعاتِ الَّتي يَعيشونَ فيها، وغيابُ التَّعايُشِ أيضًا مع الآخَرِ يَنتِجُ عنه ضَحايا، ويَجعلُ العالَمَ أقلَّ أمنًا؛ والشَّكلُ الأسوأُ منَ الخوفِ الَّذي يُسبِّبُه الاختلافُ: هو الخوفُ النَّاتِجُ عنِ الأصوليَّةِ والتَّعميمِ، فلِماذا نُشَيطِنُ الآخَرَ؟ ولماذا يَجبُ أن يُلغى منَ الوُجودِ؟

الرُّعبُ يُريدُ أن يَبذُرَ الخوفَ والانقسامَ الَّذي يَجذِبُ بسُهولَةٍ الشَّبابَ إلى العِداءِ، الشَّبابَ الَّذينَ يُفضِّلونَ بَدلًا من أن يُقادوا بواسطةِ آبائِهم وأمَّهاتِهم - أن يُقادوا بواسِطةِ التَّعليمِ الَّذي تَلَقَّوهُ -بمُفردِهم- مِن على مَواقعِ «الانترنت» التي تَنشُرُ الكَراهيةَ لكلِّ ما هو مُختلِفٌ.

ولا زالَ الخَوفُ منَ الاختلافِ هو الَّذي يَجعَلُنا نَقرأُ في بُلدانٍ أوروبيَّةٍ كَثيرةٍ عن ظاهرةِ الهِجرةِ كمُشكلةٍ؛ لكن يَبدو أنَّه -في مرَّاتٍ عَديدةٍ- يُمكنُ أن يَغيبَ الخَيالُ والإحساسُ الطَّيبُ الَّذي يَجعَلُنا نَرى الفُرصةَ ونَغتنمُها.

في أوروبا يَنمو هناكَ جيلُ العَولمةِ الذي -وبدونِ أن يَجهلَ أصولَه- فإنَّه يَشعرُ في نفسِ الوقتِ في بيتِه، أنَّه يَعيشُ في ثَقافةٍ أوروبيَّةٍ، هي ثَقافةُ الدِّيمقراطيَّةِ، ثَقافةُ الحُريَّةِ، وثَقافةُ دَولةِ القانونِ.

الخَليطُ منَ الحَضاراتِ يُساعدُ الشَّابَّ في أوروبا على تَحديدِ قِيَمِه بشَكلٍ أفضلَ، وعلى أن يَكونَ رَدُّ فِعلِه ضِدَّ الاستسلامِ والانعزالِ الَّذي كثيرًا ما مَيَّزَ العالَمَ القديمَ؛ على أيَّةِ حالٍ فإنَّ الهِجرةَ لم تُؤَدِّ بجيلِنا إلى العَيشِ بشَكلٍ تِلقائيٍّ مع

هؤلاءِ الَّذينَ يَختلفونَ عنَّا، ولا تَزالُ هناكَ حاجةٌ كَبيرةٌ إلى بِناءِ ثَقافةِ العَولَمةِ، أو ثَقافةِ العَيشِ معًا.

وهذا اللِّقاءُ هنا في «فلورنسا» يُساعدُنا على أن نَجدَ مَصادرَ لهذهِ الثَّقافةِ، وعلى أن نَتحمَّلَ المسئوليَّةَ العاجلةَ عن إيجادِ أساليبَ ونَماذجَ للتَّعايُشِ مع الأشخاصِ المُختلفينَ عنَّا.

إنَّ التُّراثَ الرُّوحيَّ للأديانِ، يُعَلِّمُ الأشخاصَ كيفَ يَتعايشونَ معًا؛ هذا بما أنَّ كلَّ دينٍ يَدعو أتباعَه إلى احترامِ الحياةِ وتَكريمِها، واحترامِ الآخَرِ، ويُعلِّمُهم كيفَ يَعيشونَ حَسَبَ نَموذَجٍ، وحَسَبَ رُؤيةٍ.

في هذا العامِ «٢٠١٥»، منَ الصَّعبِ أن نَتخلَّى عن أفكارِ التَّعايُشِ معًا؛ ومُؤسَّسةُ «سانت إيجيديو» قد دعَت في «بروكسل» حَوالَيْ ألفِ شخصٍ، نَجدُ فيما بينَهم القادةَ الدينيِّينَ، والقادةَ العَلْمانيِّينَ المُعترَفَ بهم، يَسيرونَ في طَريقٍ واحدٍ معًا، نحوَ السَّلامِ، ونحوَ الحُريَّةِ، ونحوَ الاحترامِ.

يَلزمُنا جميعًا طاقاتٌ للتَّعرُّفِ على الآخَرِ، والاهتمامِ بتاريخِه، واحترامِ ذلك الذي يَعتبرُه الآخَرُ مُقدَّسًا؛ وذلكَ كي نَجدَ ثَقافةً مُشترَكةً، تُساعدُنا على العَيشِ معًا؛ فهناكَ مصادرُ تُطِلُّ علينا: من تُراثِ أديانِنا، ومنَ التُّراثِ العَلمانيِّ، يَجبُ أن تَجدَ طُرقًا جَديدةً، تُمكِّنُنا من أن نَبنيَ معًا «إنسانيَّةَ القَرنِ الحادي والعشرينَ»؛ ألَا وهي: «إنسانيَّةُ العَيشِ معًا».

إنَّ طريقَ «رُوحِ لقاء أسيزي» هو سبيلٌ انطلقَ منذُ نحوِ ثلاثينَ عامًا؛ حيثُ يَتحاورُ الكَرادلةُ والبَطاركةُ مع مُفتي الإسلامِ، وآياتِ اللهِ، ومعَ حاخاماتِ اليهودِ، وأيضًا معَ مُمثِّلي عالَمِ السِّياسةِ، وعالَمِ الثَّقافةِ، ومُؤسساتٍ عَظيمةٍ، مِما يُعَدُّ - كَما يَبدو لي- مَخزونًا عظيمًا للسَّلامِ، ومَخزونًا عظيمًا لثَقافةٍ جَديدةٍ مُشترَكةٍ.

هذا المَخزونُ دُرِسَ بِقَدرٍ قَليلٍ جِدًّا، وطُبِّقَ كَذلكَ على نَحوٍ ضَيِّقٍ جِدًّا، وحَسَبَ «روحِ لقاء أسيزي»، وكَما تَأسَّسَ في تُراثِه: فإنَّ المُؤمنينَ يَستطيعونَ أن يَجدوا شَجاعةَ الاهتمامِ بالآخَرِ؛ إنَّه «سان فرانشيسكو» قِدِّيسُ «أسيزي»، الَّذي يَقولُ لنا: إنَّنا في حاجةٍ إلى اللُّطفِ معَ الآخَرِ، والصَّبرِ والاحترامِ؛ ونحنُ نَقولُ: إنَّ من سِماتِ المرأةِ أنَّها أكثرُ لُطفًا في التَّحاورِ معَ الآخَرِ.

في عالَمِ العَولَمةِ فإنَّ الأديانَ لَديها دائمًا مَهَمَّةُ تَعليمِ الشَّبابِ: أن يَتعمَّقوا في تُراثِهم بعُيونٍ مَفتوحةٍ على الآخَرينَ، وأنَّ العَيشَ معًا هو أفضلُ كثيرًا منَ التَّواجُدِ معًا، غَيرَ مُبالينَ ببعضٍ، كمَجموعاتٍ، وكمُجتمَعاتٍ.

هُناكَ حاجَةٌ إلى الخُروجِ منَ الذَّاتِ، ومُقابلَةِ الآخَرِ؛ لأنَّ مَن يَخرجِ مِن ذاتِه و يُقابِلِ الآخَرَ، يَصنع خِبرةً لا يُمكنُ تَوقُّعُها أوِ السَّيطرةُ عليها؛ لأنَّ اللِّقاءَ يُعَبِّرُ

عنِ الآخَرِ الَّذي تُقابلُه، و في لِقاءِ الآخَرِ نَجدُ صديقًا؛ رُبَّما نَجدُ أيضًا شاهدًا مِن شأنِه أن يُساعدَنا أن نَمضيَ نحوَ الحُبِّ، ورُبَّما نحوَ طَلَبِ العَفوِ، وهكَذا عَبْرَ اللِّقاءِ و الخُروجِ: يَستطيعُ الرَّجلُ والمَرأةُ في عصرِ العَولَمةِ، أن يَستعيدا الأملَ في التَّحرُّرِ منَ التَّشاؤمِ.

ولهذا: فإنَّ مَؤسَّسةَ «سانت إيجيديو» في أوروبا، تَضطلعُ بمَهَمَّةِ إعادةِ حياكَةِ النَّسيجِ الإنسانيِّ، فيما بينَ الأوروبيينَّ القُدماءِ والأوروبيينَّ الجُددِ، وهي تُنظِّمُ فَعَّاليَّاتٍ للتَّذكيرِ بتَرحيلِ اليهودِ و الغَجَرِ من مُدنِهم، أو عَبرَ لِقاءاتٍ احتفاليَّةٍ مِثلُ: حَفَلاتِ الإفطارِ التي تُنظِّمُها للمسلمينَ في مدينةِ «فلورنسا»؛ كدَليلٍ على التَّقارُبِ والتَّقديرِ المُتبادَلِ .

ومُؤسَّسةُ «سانت إيجيديو» تَنشُرُ هذه الثَّقافةَ، أي ثَقافةَ العَيشِ معًا، بينَ أجيالِ الشَّبابِ؛ وهو أُسلوبٌ مِن شأنِه: أن يُؤدِّيَ إلى تَحاشي الانفعالاتِ، والنُّعَراتِ القَوميَّةِ، والغَضَبِ العُنصريِّ؛ ومن شأنِه: أن يَضَعَ الجميعَ في يَقَظَةٍ، بشَأنِ كلِّ شَكلٍ قَديمٍ أو جَديدٍ، مِنَ العِداءِ ضِدَّ السَّاميَّةِ، أو الإسلامِ فوبيا.

وهكَذا تَستطيعُ العَولَمةُ أن تُصبحَ ثَقافةً لكُلِّ المواطنينَ، وثَقافةً للأطفالِ، وشَبابِ الأحياءِ الفَقيرةِ؛ والعَيشُ معًا هو أفضلُ ضَمانةٍ للأمنِ فوقَ كَوكَبِنا.

* * *